أيمن بن خُريم الأسدي "خليل الخلفاء"

حياته وشعره

الدكتور/ ممدوح محمود يوسف حامد

جامعة الزيتونة الأردنية

نسب الشاعر وأسرته

هو أيمن بن خريم بن الأخرم بن فاتك بن القليب بن عمرو بن أسد بن خزيمه بن مدركة أبن الياس بن مضر بن نزار ، وينسب أيمن إلى فاتك جد أبيه ، ويعرف بأيمن الأسدي نسبة إلى قبيلة أسد.[1]

كان أيمن من أشراف قومه ، وفرسانهم ، وشعرائهم ، ينحدر من أسرة صحابية ،(وكان شامي الأصل ، نزل الكوفة ، وقد أسلم عام الفتح وهو فتى يافع.[2] قال عنه ابن سعد (كان أيمن شاعراً ، فارساً ، شريفاً)[3] إضافة إلى هذه الصفات الحميدة فقد كان (يروي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم).[4]

وقصة سماعه عن النبي عليه السلام مباشرة اختلف فيها الباحثون القدماء والمحدثون.

واستناداً للخبر الذي قال بأنه اسلم عام الفتح في السنة الثامنة للهجرة ، فمعنى ذلك أنه أسلم مع والده خريم ، وذلك قبل وفاة الرسول عليه السلام بثلاث سنوات ، ولما كان في تلك الفترة فتى يافعاً ، فهذا يعني بأن مولده كان قبل الهجرة بقليل ، وعمره كان في عام الفتح لم يبلغ سن الرشد التي تؤهله لمجالسة الرسول عليه السلام.

والرواية عنه مباشرة ، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه روى الحديث عن والده ، وعمه سبرة إبن فاتك[5] وكانا من صحابة رسول الله .

أما بالنسبة لوفاته ، فقد كانت في خلافة عبد الملك بن مروان في سنة[6] 80هـ ، فيكون بذلك قد عاش أكثر من خمس وثمانين سنة .

أخلاق الشاعر وصفاته

إن البيئة التي نشأ فيها شاعرنا أيمن بن خريم بيئة إسلامية خالصة برزت مظاهرها واضحة جلية في أخلاق شاعرنا وصفاته وسلوكاته ، فقد كان أيمن مدركاً لتعاليم الدين الإسلامي إدراكاً واعياً بكل ما فيه من تسامح وتقوى ومحبة وصدق ووفاء ، وتضحية في سبيل الله دفاعاً عن المبادئ الإسلامية السمحة ، ضد كل من يحاول المساس بها، أو الاعتداء والتطاول عليها.

لذلك حرص شاعرنا على أن لايكون من الشعراء الذين يتبعهم الغاوون ، بل أراد أن يكون من صنف الشعراء الذين استثناهم المولى عزوجل ، وهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

وبما أن صاحب الموهبة الشعرية يكون اسيراً لتلك الموهبة التي تفرض نفسها على صاحبها ليتجاوب مع الأحداث الإنسانية العامة ، والتجارب الشخصية ، والإنفعالات والأحاسيس التي تتفاعل في داخل الشاعر بقدر تأثره بتلك الأحداث ،

وبالتالي تتجلى موهبته في التعبير عن تلك الإنفعالات والأفكار من خلال ترجمتها إلى صور شعرية رائعة.

فكان شاعرنا يتأثر بما حوله ، ويبدع صوراً شعرية صادقة صدق الحدث دون زيادة أو نقصان ، فلم يجعل من شعره مطية يمتطيها الرعديد الجبان ، ليصبح شجاعاً صنديداً ، ولا الشحيح البخيل ليصبح بواسطة الشعر كريماً معطاءً ، فقد وضع شاعرنا نصب عينيه أن يتوخى الصدق والحق في كل أشعاره ، لا يداهن صديقاً ، ولا يجامل أميراً ، ولا صاحب سلطان ، غير طامع في كسب منصب أو مال ، فكان شريفاًُ ، أبياً ، عزيز النفس لا يحيد عن المبدأ الذي أرتضاه لنفسه تلبية لرغبات الخلفاء والأمراء فكان إذا مدح يبتعد عن المبالغة في المدح ، لأن المبالغة ضرب من الكذب والإفتراء ، وهي قلب للحقائق ، وهذا يتناقض كلياً مع أخلاق الإسلام التي التزم بها شاعرنا ، والتي اكتسبها من والده الصحابي الجليل خريم إبن الأخرم .

إضافة إلى ذلك ما كان يتحلى به من جرأة نادرة في احقاق الحق ، والتنبيه عليه ، والتحذير من الفتن إن رأى فيها خطراً على وحدة الأمة الإسلامية ، وقد تجلى ذلك في تمرده على أوامر الخلفاء الذين كلفوه بمهمات قتالية ضد المسلمين ، لأن في ذلك مخالفة واضحة لأخلاقه الإسلامية التي تربى عليها منذ صغره ، فلا يستطيع التفريط بها في كبره إرضاء لنزوات أمير أو سلطان .

وبحكم علاقاته العامة وبخاصة مع طبقة الخلفاء والأمراء الذين كان يجالسهم ويسامرهم ، ومعاشرته لهم ليست كلها ود وصفاء ، فكان يشوبها أحياناً الجفاء والنفور

، الأمر الذي يحتم عليه أن يقول فيهم المدح والهجاء ، ولكنه مدح صادق ، وهجاء محتشم يخلو من الفحش .

" وتَتَبعتُ شعراء الشيعة سوى الكُميت من الذين عاشوا في عصر بني أمية ، فوجدت اكثرهم كان يخشى بطش الأمويين فاستتروا في ظلال "التقية" فجاملوا بني أمية كما فعل أيمن بن خريم ، فقد عاش شاعراً شيعياً مسالماً "[131].

إضافة إلى قوله شعر الحكمة والموعظة ، الذي ضمنه النصح والإرشاد لأبناء الأمة الإسلامية التي كان حريصاً على أن تظل أمة متماسكة بعيدة عن الفتن والحروب الداخلية التي تشتت الشمل ، وتمزق الصف ، وتغري الاعداء للنيل منها ، وهذه الألوان الشعرية ضمنها خلاصة تجاربه التي طعمها بما اكتسبه من تكوينه الديني .

أما غرض الغزل ، فقد قال فيه شعراً رزيناً بعيداً عن طيش الشباب ونزواتهم ، حيث كان يدور على وصف الجانب المادي من المرأة ، محاولاً قدر المستطاع أن ينقيه من الكلام الفاحش إلا في ما ندر ، ولعل السبب في ذلك أنه قاله وهو في سن الشيخوخة وأراد أن يجعل منه درساً مفيداً للذين هم أقل منه خبرة وتجربة في الحياة ، وبخاصة الجانب الذي يدور حول العلاقة بين الرجل والمرأة في سن معينة من العمر ، فكان شعره الغزلي صدى لتجاربه الخاصة معهن ، يُدلل على خبرته الواسعة بطبائعهن وصفاتهن ، وما يُحببن ، وما يكرهن في الرجال ، يتحدث عنهن حديث من لا تخفى عليه خافية منهن، وهذا دليل على أنه صادق في التعبير عن تجاربه ، بعيداً عن المبالغة في تضخيم الحقائق.

ومن صفاته أيضاً خفة ظله ودماثة خلقه ، وهما سر جاذبيته وحسن معاشرته مع الناس وبخاصة مع مجموعة الخلفاء الذين صادقهم ونال عندهم الاحترام والتقدير ، لدرجة أن أحداً من أقرانه لم يستطع أن ينال احترامهم ، ويكسب ودهم مثله ، حتى استحق بجدارة لقب (خليل الخلفاء) ، وكان الواحد من الشعراء يطمح إلى أن يكون أثيراً عند أحدهم يخصص له مدحه ولكن كما أسلفنا فإن هذا الود لم يدم طويلاً .

فنرى شاعرنا كثيراً ما يشعر بالندم على قوله تلك الأشعار المدحية في هؤلاء الخلفاء لأنهم لا يحفظون الجميل للشعراء ، ما دام هناك منافسة بين الشعراء على بلاط الخلفاء

الأغراض الشعرية التي قال فيها

إن العرب من الأمم التي حباها الله موهبة قول الشعر ، وروايته ، فالعربي شاعر بالفطرة فمن لم يقل الشعر كان يحفظه ويرويه . ومن كانت لديه موهبة قول الشعر ، فقد كان غالباً ما يسخرها لتصوير بطولات وهمية ، ومتخيلة ، وأحياناً يصور بها حقيقة واقعة.

وكان بعض الشعراء يضفون على أنفسهم هالة من الشجاعة النادرة ، والبطولات الخارقة ، ضمن نصوص ونماذج شعرية فريدة من نوعها ، حيث تحمل في طياتها نزراً قليلاً من الواقع ، وشيئاً كثيراً من الكذب والافتراء الذي يضيع في خضِّمِه ذلك النّزرُ القليل من الحقيقة.

وبالمقابل نجد صنفاً من الشعراء الموهوبين الذين يقولون الشعر الصادق الذي يدعو إلى الخير والفضيلة بعيداً عن الكذب والافتراء ، والمبالغات المقيتة ، والله عزوجل

تحدث لنا عن الصنفين فقال في شأنهم " **والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون** "(63).

فقد حرص شاعرنا على أن يكون من الشعراء الذين استثناهم الله من جموع الشعراء الذين يتبعهم الغاوون ، وأن يكون من الشعراء الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيرا ، فقد جمع بين فضيلة الجهاد بالنفس وفضيلة الجهاد بالكلمة الطيبة ، وقد استطاع أن يترجم تلك الفضائل إلى واقع ملموس ، فجاهد بنفسه ، حيث كان فارساً مغواراً ضد أعداء المسلمين وجاهد بأشعاره ، وأعماله الصالحة الشريفة التي سخرها لخدمة أهداف المسلمين .

فشاعرنا المجاهد أيمن بن خريم من شعراء الدولة الأموية ، عاصر الدولة الإسلامية وهي في أوج قوتها ، وعاصر بداية الانقسامات التي أنهكت جسد الدولة الإسلامية منذ وفاة النبي عليه الصلاة والسلام حيث قامت حروب الردة حتى مقتل سيدنا عثمان وتسلم سيدنا عليّ الحكم من بعده وما رافق تلك الفترة من انقسام المسلمين ، وتمرد الأمويين على سيدنا عليّ حين أعلن معاوية تمرده وعدم المبايعة لعلي ، مما أدى إلى حرب صفين ، ومن قبلها موقعة الجمل فكانت تلك الفترة تشكل منعرجاً خطيراً في مسيرة الدولة الإسلامية ، وكانت بداية الانقسامات وظهور الأحزاب السياسية ، والدينية كالشيعة، الخوارج ، والزبيريين ، وبني أمية وغيرها من الأحزاب الأخرى التي يحاول كل حزب منها أن تكون له السلطة النافذة على المسلمين معتقداً

أن ما ينادي به هو الحق ، وغيره من الأحزاب الأخرى على باطل ، ولتوصيل تلك المبادئ كان لكل حزب منها شعراؤه الذين يروجون له ، وفي الوقت نفسه يدافعون عنه ، ويهاجمون خصومهم من الأحزاب الأخرى .

والحقيقة تقال أن تلك الفترة من تاريخ الأمة الإسلامية قد أضعفت المسلمين ، وأسعدت أعداءهم وإن كان لها من حسنة تذكر ، فقد أثرت المكتبة العربية بمجموعة من الدواوين الشعرية فكان الشاعر يقصر نفسه على حزب بعينه ، يمدح زعماءه ، ويهجو خصومه ، ويصف معاركه ويرثي قتلاه ، فكان الشاعر يقول في كل فنون الشعر .

أما بالنسبة لشاعرنا أيمن بن خريم فقد كان حراً غير ملتزم بحزب معين ، بل كان حيادياً يدور أغلب شعره حول مصلحة المسلمين العامة ، أما شعره الذي يتحدث فيه عن خصوصياته فقد كان قليلاً – كما رأيناه في قصيدته الغزلية – إلا أن هذا القليل كان يهدف من ورائه النصح والإرشاد للذين لم يخوضوا التجربة التي خاضها والتي هي تعبيرعن مشاعره وعواطفه الوجدانية الصادقة.

فهو شاعر وجداني فصيح الألفاظ ، بديع التراكيب ، واضح المعاني ، إلا في ما ندر ، وقال في فنون الشعر المختلفة ، من مدح ، وهجاء ، ورثاء , وغزل ، وحكمة ، وإن كان في بعض شعره قد ابتعد عن صراط الحكمة أحياناً كما سنلاحظ في شعره الغزلي الذي طعّمهُ بشيء من المجون.

وبالنسبة لنتاجه الشعري فقد كان قليلاً – إذا ما قيس بنتاج أقرانه من شعراء الأحزاب الأخرى– فلم نعرف أنه خلّف ديواناً شعرياً ، والباحث عن آثاره الشعرية يجد أنها قصائد قصيرة ومقطعات شعرية متناثرة في أحشاء كتب التراث ، وهذا شأن الشعر الهادف الذي امتاز به شاعرنا ، ولعل السبب في قلة أشعاره ، وقصر قصائده يرجع إلى أمور منها:–

– لأنه كان في الأصل راوياً للحديث الشريف.

– لأنه لم يتخذ من الشعر حرفة له ، بل كان شاعراً وجدانياً صادقاً ، يقول الشعر استجابة لعواطفه ووجدانه.

– لأنه لم يكن ملتزماً بحزب معين ، ليحتم عليه أن يقول في كل مناسبة.

وسوف نحاول التعرف على مقدار شاعريته من خلال استعراض بعض النماذج الشعرية التي تمثل اتجاهاته من خلال قوله في فنون الشعر وأغراضه الأساسية.

1) *المدح :*

يعد المدح من الأغراض الشعرية التي قال فيها وأكثر ، وذلك بحكم علاقاته المتميزة مع الخلفاء والأمراء ، والنجاح في هذا الغرض يعتمد بشكل أساسي على وصف الممدوح بالفضائل الأربع التي يشترك فيها الناس جميعاً وقد حددها قدامة بن جعفر (بالعقل ، والشجاعة ، والعدل ، والعفة ، فالقاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً ، والمادح بغيرها مخطئاً ، وقد يجوز في ذلك أن يقصد الشاعر للمدح منها بالبعض ، والإغراق فيه دون البعض)[64].

فكانت طبقة الخلفاء والأمراء هي محور غرض المدح في شعره ، حيث كان دائم الاتصال بهم يحبهم ويحبونه ، ويجزلون له العطاء ، فكان بدوره يرد لهم جميل صنيعهم معه فيمدحهم بالشعر الذي يحبونه ، متوخياً في شعره الصدق ، وعدم المبالغة في وصفهم، ولكن تلك العلاقة ما تلبث أن يشوبها شيء يعكر صفوها ، فيتحول المدح إلى هجاء وندم من جانب شاعرنا .

وكان بشر بن مروان من أكثر خلفاء بني أمية حظاً في شعره المدحي حيث خصّه بأكثر من قطعة مدحية كما في القطعة رقم "8" من هذا البحث(65) وهي على قافية السين وعدد أبياتها ستة أبيات.

وكذلك مدحه في القطعة رقم"5" وهي على قافية الراء وعدد أبياتها ثلاثة ، ومدحه أيضاً بالقطعة رقم"4" وهي على قافية الدال وعدد أبياتها ثمانية ، ومن مدائحه لغير بشر بن مروان نراه يمدح بني هاشم ويتعاطف معهم جرّاء ما فعله بهم بنو أمية من ظلم وتعذيب ، دون أن ينسى التعريض ببني أمية في القطعة نفسها وهي القطعة رقم"1" في هذا البحث وقافيتها همزية وعدد أبياتها ستة.

فنلاحظ أن الشاعر كان يمدح من ينزل في بلاطه ويُعّرض بالذي فارقه ، وكان في تعريضه محتشماً ، ولعل السبب في ذلك هو صلة القرابة التي تربط بين محوري المدح والهجاء.

2) الرثاء :

من الأغراض الشعرية التي قال فيها أيمن بن خريم غرض الرثاء ، وخير ما يمثل هذا الغرض القطعة التي قالها في رثاء أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وهي أبيات تفيض بمشاعر الحزن ، والأسى على فقدانه ،والطريقة التي قتل فيها ، والزمان الذي اختاره القتلة ، حيث بدأها بشعر الرثاء وختمها بالهجاء والتقريع للذين شاركوا في قتله ظلماً وعدوانا.

والقطعة التي تمثل غرض الرثاء هي القطعة رقم "10" في هذا البحث وقافيتها طائية ، وعدد أبياتها ثمانية.

ولعل السبب الذي دفعه إلى رثاء سيدنا عثمان نابع من تخوّف الشاعر بأن يُصبح عملهم هذا سنّة متبعة ، في أن يقتل المسلمون حكامهم على الرغم من أن سيدنا عثمان كان أموياً ، وكان في قطع أخرى قد هجا بعض الأمراء الأمويين كعبد العزيز بن مروان الأموي وأخيه يحيى ولكن موقفه من سيدنا عثمان نابع من حرص شاعرنا الشديد على مصلحة المسلمين العامة، وغيرته على وحدتهم.

فقد كان عثمان يشكل رمزاً لكل المسلمين ، والاعتداء عليه بهذه الطريقة يشكل سابقة خطيرة في دولة الإسلام تستحق الاستنكار والتنديد من كل غيور على وحدة المسلمين.

وأما التناقض الذي قد يستشعره القارئ ، فلا وجود له لأنه قطع على نفسه عهداً أن لا يشارك في قتال ضد المسلمين ، ولا يحارب طرفاً لصالح طرف آخر ،

فالحرب التي عناها هي الحرب الفعلية لا الحرب الكلامية لا سيما إذا عرفنا أنه " كان شاعراً فارساً شريفاً"(66)

3) الوصف :

من الأغراض الشعرية التي قال فيها شاعرنا غرض الوصف ، والوصف في عُرفِ الشعراء يتناول جوانب مختلفة من مظاهر الحياة ،كوصف الطبيعة ، ووصف المرأة ومفاتنها ، ووصف الحروب وويلاتها ، ووصف العلاقات الاجتماعية بأفراحها وأتراحها ، وشاعرنا قال في أغلب هذه الجوانب والقطعة التي قالها في غزالة الشيبانية وحربها مع أهل العراق ، والتي استغرقت وقتاً طويلاً وهي القطعة رقم "10" من هذا البحث وهي على قافية الطاء ، وعدد أبياتها "8" فقد وصف الشاعر بداية الحرب وصفاً تفصيلياً بكل صدق وأمانة حيث نقل إلينا أعداد الفريقين المتحاربين ، ونوعية أفراد كل فريق من ذكور وإناث ، ولباس كل فريق ، ثم انتقل ليصف لنا نتائج تلك الحرب ، وما جرّته على العراقيين من ويلات وتقتيل وسبي وأحزان ظلت تلازم أهل العراق الذين وصفهم الشاعر بالتخاذل وعدم المبالاة ، من الذي ألحقه بهم جيش غزالة وقد صاغها بأسلوب قوي ورصين ، وتكاد هذه القطعة أن تكون أنموذجاً للشعر الذي يعج بالألفاظ الصعبة والغامضة في معانيها وقد أثبتنا ذلك في شرح القطعة رقم"10" من هذا البحث.

4) الغزل والنسب :

بعد أن تعرفنا على أخلاق الشاعر وتكوينه الإسلامي ، فإننا وقعنا على قطعة شعرية قد تختلف عن منهج الشاعر وطبيعة شعره الذي يدور في معظمه على الشعر المدحي والوعظي والحكمي ، ولكن هذه القطعة التي تحتل الرقم "2" في هذا البحث وقافيتها بائية ، وعدد أبياتها عشرة وهي من الشعر الوجداني التي عبر فيها الشاعر عن عواطفه وتجاربه بصدق وأمانة ، حيث نقل إلينا علاقته بالنساء الجميلات صغيرات السن.وهو في سن الشيخوخة ، فقد صاغها الشاعر بأسلوب بلاغي جميل.

واصفاً معاناته الشديدة معهن ، إضافة إلى أنه ضمّنها مجموعة من المواعظ والحِكم التي اكتسبها من تجربته الخاصة بهن، ونقلها من عالمه الخاص إلى عالم أوسع وأرحب وهو عالم الإنسانية جمعاء وبخاصة أبناء جنسه من الرجال مقدماً لهم النصائح والتحذيرات كي يجنبهم ما عاناه من مشاكل ومتاعب.

فقد استطاع شاعرنا أن يترجم لنا تجاربه الخاصة بصورة شعرية متينة النسج ، واضحة المعاني ، سهلة التراكيب ، فصيحة الألفاظ إضافة إلى الصراحة المتناهية في التعبير عن خصوصياته مما جعل القصيدة تنال اعجاب كل من قرأها ، وبخاصة أصحاب الذوق الرفيع في مجال النقد الادبي ، فنرى عبد الملك بن مروان عندما سمع القصيدة من أيمن يقول له: (ما وصف النساء أحدٌ مثل صفتك ولا عرفهنّ أحد معرفتك)[67] وقال له أيضاً : (نعم الشفيع أيمن لهنّ) فهذه القصيدة من الشعر الوجداني الاجتماعي الصادق البعيد عن المبالغة والخيال ، دون أن يتورع عن تطعيمها بشيء من المجون المحتشم الذي اقتضاه جو القصيدة العام ، وكان في مجونه هذا قد

خرج عن المألوف في أسلوب شعره العام ،حيث أن أغلب شعره يدور حول المدح والهجاء والحكمة والموعظة النابعة من أخلاقه الإسلامية التي تمتاز بالورع والتقوى.

5) الهجاء :

من الأغراض الشعرية التي قال فيها شاعرنا غرض الهجاء فقد كان لا يلجأ إليه إلا أذا أحسّ بإهانة أو إساءة قد وجهت إليه ، ولعل السبب في الهجاء الذي يضطر للقول فيه راجع للتعريض بمرض البرص الذي كان أكثر ما يثير حفيظته فهو يشكل عنده نقطة الضعف ، وشعوره بالنقص ، الأمر الذي يجبره على أن يرد بعنف على كل من يحاول النيل منه والتعريض به مضحياً بالمكانة التي يكون قد حازها في قصورهم.

فلا غرابة إذا رأيناه يمدح ويهجو في آن معاً ، فيكون الممدوح أخاً للمهجو ، لذلك كان هجاؤه محتشماً غير جارح حفاضاً على مشاعر الممدوح ، ومن شعره الهجائي القطعة رقم "13" وقافيتها بائية ، وعدد أبياتها ثلاثة قالها في هجاء يحي الذي أهدى له جارية برصاء.

وكذلك القطعة رقم "4" الدالية ، وعدد أبياتها ثمانية حيث هجا فيها عبد العزيز بن مروان عندما فضّل عليه الشاعر نُصيب ومن الشعر الهجائي القطعة رقم "1" الهمزية ، وعدد أبياتها ستة ، والقطعة رقم " 3 " الواوية ، وعدد أبياتها ستة ، وفيها هجاء لقتلة عثمان فالنماذج التي أثبتناها أغلبها يمس شخصية الشاعر نفسه ، وهنالك نماذج أخرى قالها بسبب غيرته على المصلحة العامة للمسلمين ، ويمثل ذلك القطعة رقم "7" السينية ، وعدد أبياتها اثنان ، حيث قالها في هجاء أبن عباس ، والقطعة رقم "1" في هجاء بني أمية ومدح بني هاشم ، والقطعة رقم "3" ، وعدد أبياتها ستة.

6) الحكمة والموعظة:

أغلب الشعر الحكمي عند شاعرنا نابع من تكوينه الإسلامي حيث تربى في أسرة إسلامية كلها ورع وتقوى ، وجهاد في سبيل الله ، فكان حريصاً على وحدة المسلمين ، ويحارب القلاقل والفتن التي تشتت صفّ المسلمين ، وإنه أخذ على نفسه عهداً أن لا يقف مقاتلاً في صف مسلم ضد مسلم آخر ، فكان الاعتزال والحياد من المبادئ التي حرص على تطبيقها حتى لو أدى حياده إلى إغضاب أصحاب الجاه والسلطان لأنه كان يؤمن بان الاشتراك في قتال المسلمين ضرب من المعاصي للخالق ، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

فالحياة في نظر الشاعر هي انعكاس لفلسفة إسلامية مفادها إن الحياة الحقيقية هي الحياة الآخرة ، أما الحياة الدنيا بمفاتنها ، ونعيمها ما هي إلا متاع زائل ، فما على الإنسان إلا أن يعمل الخير في دنياه ليكون له زاداً في أخراه ، أما التلهي بالترف والنعيم وخفض العيش فلا يغني عن صاحبه شيئاً .

لذلك كان للشاعر مجموعة من المواقف الشعرية التي تنبض بالحكمة والموعظة فنراه في القطعة رقم "9" من هذا البحث وهي على قافية الشين ، وعدد أبياتها ثلاثة. والقطعة رقم "11" وقافيتها لأمية ، وعدد أبياتها ثلاثة ، والقطعة رقم "12" وقافيتها الهاء، وعدد أبياتها اثنان ، هكذا كما أسلفنا من قبل نلاحظ أن شاعرنا في شعره الحكمي والوعظي كان يحاول أن يخرج من دائرته الخاصة إلى دائرة أوسع وأرحب إلى دائرة الإنسانية حتى تعم الفائدة كل الناس ، وهذا نابع تكوينه الإسلامي.

السمات العامة لشعر الشاعر

1. الواقعية :

لقد أضفى الشاعر على أسعاره هالة من الصدق والواقعية ، بعيداً عن الجنوح إلى الخيال الذي كثيراً ما يجبر صاحبه على أن يحيد عن الحقيقة ، أو أن يضخمها عن طريق اللجوء إلى المبالغة التي فيها من التهويل ما يتنافى مع رسم الحقيقة ونقلها كما هي .

فشاعرنا كان ملتزماً بمبادئ الدين الإسلامي الذي يحث أتباعه على الصدق في التعبير عن مشاعرهم ، وأحاسيسهم ، وتجاربهم الخاصة والعامة ، حتى لو اضطرته الحقيقة –في بعض الأحيان– للخروج عن المعهود ، وقد ظهر ذلك جلياً عند شاعرنا في القصيدة الغزلية التي صور فيها تجاربه الخاصة مع نسائه ، وكان فيها صريحاً إلى أبعد الحدود اضطرته صراحته إلى استعمال بعض الألفاظ الفاحشة التي تدخل شعره في دائرة المجون ، وهو صاحب التقوى والورع ، فكان التزامه بالصدق في أشعاره هو الذي اضطره لقول هذا اللون من الشعر الذي لا يتناسب مع منهجه الشعري ، فقد أراد أن يجعل من تجربته الخاصة ، درساً للناس عامة ، ليستفيدوا منه فالصالح العام كان لديه في الدرجة الأولى.

والواقعية والصدق في نقل الحقيقة كما هي جعلته يضحي بإفشاء أسراره وينحرف عن صراط الحكمة التي ارتضاها لنفسه ، ليطرق باب المجون.

2.التأملية :

أن هذه السمة في شعر أيمن بن خريم تتواجد في ذلك اللون الذي يتحدث فيه عن الحكمة والموعظة التي هي بمثابة ترشيد ونصائح يسديها الشاعر لغيره من أبناء دينه وللناس أجمعين ، لأن تلك النصائح ما هي إلا خلاصة تجارب الشاعر نفسه ، وأراد أن يخرج بها من إطاره الخاص الضيق إلى الإطار الإنساني العام ، فهي على الرغم من قلتها إلا أنها قد سمت إلى أفق إنساني أرحب وأوسع

3.الاهتمام بالجانب الاجتماعي :

إن الجانب الإنساني العام ، وما يحيط به من مشاكل قد تقلب الحق باطلا ، والباطل حقا، وفي ذلك قد يحيق الظلم بالأبرياء وينالون عقابا لا يستحقونه ، وقد يظل الظالمون أحرارا لا تطالهم يد العدالة ، فيتمادون في ظلمهم وعدوانهم على الآخرين ، وهذا يتنافى مع مبادئ الإسلام التي تعمل على إحقاق الحق .

وشاعرنا كان كثيراً ما يتألم إذا ما وقع ظلم على أفراد المسلمين بعامة ، ورموزهم بخاصة فقد كانت نفسه تذوب حسرة وألما على ما أصاب الخليفة عثمان بن عفان ، وكان خوفه من أن تصبح الطريقة التي أودت بحياة الخليفة سنة متبعة بين الناس ، فيتطاول الناس على حكامهم وأولي الأمر منهم ، ومثل ذلك عندما وصف الحرب التي دارت بين غزالة وأهل العراق وما ترتب عليها من إزهاق للأرواح البريئة.

4. الأسلوب:

لقد اعتمد شاعرنا في بناء أسلوبه على التراكيب السهلة والألفاظ الواضحة الدلالة –ألا في ما ندر– فكثيرا ما كان يميل إلى استعمال الاستفهام الاستنكار ليؤكد الحقيقة والواقع ، ومما يلاحظ على الشاعر أنه في بعض الأحيان كان يستخدم الألفاظ الغامضة في شعره ومن أمثلة ذلك قوله:

رجوا بالشقاق الأكل خضما فقد رضوا

أخيراً من أكل الخضم أن يأكلوا قضما[68]

فالخضم: –كما في القاموس– هو الأكل بأقصى الأضراس أو امتلاء الفم بالمأكول والقضم: هو الأكل بأطراف الأسنان[69]

ومثل هذه الألفاظ الغريبة التي استعملها شاعرنا نجد كلمة ، تفاقدوا: في القصيدة التي رثى فيها عثمان بن عفان ، وهي مأخوذة من تفقده[70] : إذا مات غير فقيد ولا حميد (أي مات ميتة غير كريمة ولم يحزن عليه أحد ، وعلى تمام ظمء : أي ما بين الشربتين[71] ، وأصل الظمء: أن تشرب الأيل ثم تظل يوما لا ترد الماء فما بين الشربتين ظمء.)

وفي رثاء عثمان استعمل كلمة سفح بدلاً من سفك ، وسفح ذاك الدم : بمعنى سفك ، وهذا الاستعمال من الفصاحة بمكان حيث يقول المولى عزوجل في سورة الأنعام" إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحا"[72] ولكن كلمة سفك هي الأكثر استعمالاً بين الناس.

ومن هذا القبيل نجد مجموعة من الألفاظ الفصيحة الغريبة في قصيدته الطائية التي يصف فيها حرب الغزالة مع أهل العراق كقوله أطيطا: بمعنى صوت ، وأطت الإبل إذا انّت تعبا[73] وماط يميط ميطا : بمعنى جار وظلم وزجر[74]

وعبط الذبيحة يعبطها: بمعنى نحرها من غير علّة ، وهي سمينة فتية

والنبيط: جيل ينزلون بين العراقيين

وبطيطا : من بط الجرح إذا شقه [75]

وكذلك كلمة مخرنطمات : من اخرنطم إذا رفع أنفه ،واستكبر وغضب[76]

إضافة إلى ذلك كان يميل إلى استخدام التشبيهات والاستعارات ، والكنايات وغيرها من المحسنات البديعية من تورية ، ومقابلات ، وطباق ، وجناس وغيرها ، وقد أحسن الشاعر استخدامها في بناء الصورة الشعرية وتركيبها تركيبا أضفى على النص الشعري رونقاً وبهاءً .

فقد كان موفقاً في نصوصه التي كان ينشئها ، يساعده في ذلك ثقافته وتجاربه الخاصة التي كان صريحاً في التعبير عنها بصدق وعفوية ، يضاف إلى ذلك قدرته على التوفيق بين جزيئات النص الشعري بطريقة تشيع فيه الحيوية والحركة ، الأمر الذي يشد القارئ ليتابع كل حركة وسكنةٍ فيه فالتشبيهات لجأ إليها الشاعر ليوظفها في إبراز المعنى والفكرة فكان دورها في شعره أصيلا أما الكنايات فكان لها دور واضح في شعره حيث أن بعض المواقف كانت لا تسعف الشاعر في التعبير عنها بصراحة وبطريقة مباشرة فكان يضطر للجوء إليها كوسيلة مساعدة له في التعبير عن أفكاره ومعانية .

وبالجملة فقد استطاع شاعرنا أيمن بن خريم أن يفرض نفسه ، ويثبت وجوده في كل مجال خاضه ، فقد كان مثالاً للرجل المسلم العادل ، الذي كرس حياته للدفاع عن الإسلام ضد أعداء الإسلام .

فحارب الفتن والقلاقل لما لها من مردود سلبي على وحدة الأمة الإسلامية ، وكان هدفه الأسمى أن يوجه الناس للجهاد في سبيل الله ، وكان أول المجاهدين فجاهد بالسيف وبالكلمة وهذا التوجه في سلوك شاعرنا نابع من أخلاقه الإسلامية التي اكتسبها من مدرسة رسول الله عليه السلام .

فكان لصدقه في حياته أثر كبير في أن ينعكس ذلك الصدق على أشعاره ، فإذا مدح لا يميل إلى المبالغة في مدحه ، لأن المبالغة ضرب من الكذب والافتراء.

أما الهجاء فكان لمن يستحقه من الناس وقد سلك في فيه مسلكاً ابتعد فيه عن مسلك الشعراء الآخرين الذين يصرحون بالألفاظ الغامضة المكشوفة التي تتعرض لِعورات الناس وأعراضهم فلم يكن تقليدياً في هجائه ، بل كان محتشماً يُلمّح دون أن يُصرّح مستخدماً أصناف الهجاء المختلفة من تعريض ، وتقريع ، وتأنيب ، وقد أجاد في هذا المجال إجادة لا بأس بها ، حيث استطاع أن يشأر لنفسه من الذين حاولوا أن يمسوه بسوء، وهذا الأسلوب لا يتأتى إلا للمهرة من الشعراء الفحول ، ولعلّ مركب النقص الذي كان يشعر به شاعرنا ونقطة الضعف عنده –عندما يُعرِض به الآخرون– تَكمن بمرض البرص الذي كان يلازمه.

أما الغزل الذي يتحدث فيه عن العلاقة بين الرجل والمرأة فلم يلجأ شاعرنا إلى هذا اللون ليظهر لنا براعته في اجتذاب النساء الحسناوات إليه ، لا بل قال في هذا اللون بعد أن تخطى سن الشباب حيث العبث والطيش ، وقال شعر الغزل في سن الشيخوخة ليقدم لنا خلاصة تجاربه مع النساء من خلال معاشرته لهن كزوجات ، لا كعشيقات ، وقد عبّر عن تجاربه معهن بصدق وإخلاص بطريقة نستشف منها حجم المعاناة القاسية التي لاقاها منهن مما يجعلنا نتعاطف معه في محنته ، ومعاناته .

وقد صور لنا العلاقة بينه وبين نسائه ببراعة فائقة تدلل على أن لديه خبرة ودراية بطبائع النساء ،وصفاتهن ، وما يروق لهن من الرجال ، وما لا يروق ، وتحدث عن الاعيبهن ومكرهن فكان حسن الوصف لهن وبخاصة الجانب المادي منهن لدرجة جعلت عبد الملك بن مروان يقول له: (ما عرف النساء أحد معرفتك) .

وهكذا كان نجاحه في بقية فنون الشعر التي سخرها لخدمة الصالح العام لدينه ولأمته الإسلامية التي عمل طيلة حياته على لمّ شملها ووحدتها ، رحم الله شاعرنا أيمن بن خريم الصحابي الجليل (خليل الخلفاء).

الهوامش

([1]) اسد: هو أسم عدد من القبائل / منهم اسد بن عبد العزى بن قصي من قريش ، واسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس من مضر، وهي قبيلة شاعرنا واسد بن ربيعة من نزار ، واسد بن دودان ، وفي الأزدبطن يقال لهم بنو اسد
انظر اللباب في تهذيب الإنساب جـ 1 ص 52-53 .

(2) أنظر بين الوفاء والفداء / د.أحمد الشرباصي ص 114.
(3) أنظر الطبقات الكبرى / ابن سعد جـ 6 ص 38.
(4) أنظر بين الوفاء والفداء ص 114.
(5) أورد صاحب اسد الغابة هذه العبارة " قال الدارقطني : روى أيمن عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأما أنا فما وجدت له رواية إلا عن أبيه وعمه ".
(6) أنظر تاريخ الأدب العربي / د. عمر فروخ جـ 1 ص 474.
(7) أنظر القاموس المحيط ، مادة خرم ، جـ 3 ص 105-106.
(8) المصدر نفسه / مادة سبر ، جـ 2 ص 45.
(9) الطبقات الكبرى جـ 6 ص 38 ، وحياة الصحابة جـ 2 ص 339 ، مع اختلاف في رواية الحديث ، حيث ورد كالأتي (عن سهل بن حنظلية العبشمي رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : نعم الرجل خريمة الاسدي لولا طول جمته واسبال أزاره فبلغ ذلك خريما ، فأخذ شفرة فقطع جمته إلى أنصاف أدنيه ، ورفع أزاره إلى أنصاف ساقيه).
(10) أنظر صحيح البخاري جـ 4 ص 236.
[1]) لعل الصواب هو (أبرق العَزَّاف) وأما الذي ورد في الخبر فهو تصحيف فقد أورد صاحب معجم البلدان جـ 1 ص 68 ." أبرق العزاف" وقال في تعريفه : هو ماء لبني اسد بن خزيمة بن مدركة مشهور ، ذُكِرَ في اخبارهم انه في طريق القاصد إلى المدينة من البصرة ، يُجَاءُ من حومانة الدراج إليه ، قالوا وإنما سمي العّزاف لأنهم يسمعون فيه عزيف الجن.
[2] حياة الصحابة ، جـ 3 ص 572 – 573
(11) أنظر بين أوفاء والفداء ص 113
(12) أنظر قلائد الجمان ص 85 – 87
(13) أنظر شعر الحرب في أدب العرب في العصرين الأموي والعباسي ‘إلى عهد سيف الدولة / د. زكي المحاسني ط2 دار المعارف بمصر ص 92
(14) أنظر الأغاني جـ 21 ص 276
(63) أنظر سورة الشعراء آية رقم 224
(64) أنظر نقد الشعر / قدامة بن جعفر ص96
(65) أنظر القطعة رقم 8
(66) أنظر الطبقات الكبرى لأبن سعد جـ6 ص39
(67) أنظر الأغاني جـ21 ص273 ، الشعر والشعراء جـ3 ص454
(68) أنظر البيان والتبيين جـ3 ص 154
(69) القاموس المحيط جـ4 ص 108
(70) القاموس المحيط جـ1 ص 335
(71) أنظر فقه اللغة وأسرار العربية ص47
(72) سورة الأنعام آية رقم 145
(73) القاموس المحيط جـ2 ص362
(74) المصدر نفسه جـ2 ص401
(75) المصدر نفسه جـ2 ص371
(76) المصدر نفسه جـ4 ص106